المس كرتروديل

و

تاريخنا القومي

كانت قد كتبت المس كرتروديل (السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد البريطاني في العراق) المتوفاة عدة رسائل ،ضمنتها حوادث حياتها اليومية منذ أن أخذت في تجوالها خارج البلاد الانكليزية عاملة في سبيل توطيد حكم أبناء جلدتها في الشرق ، نشرها ابوها في مجلدين ضخمين .

وكل من يقرأ هذه الرسائل لا يشك في أنها دبجت ببراعة العاطفة ودونت لغـــايات خاصة وعلى الأخص منها ما يتعلق بالعراق وشؤونه التي يعلم كل واحد تصرفات المس بل فيهما خلال الادوار التي مرت على العراق من يوم الاحتلال الى الثورة الى تشكيل الحكومة العراقية والى يوم المعاهدة وحتى لفظت نفسها الأخير .

والذي يؤسف له هو انه لم يهتم أحد من العراقيين برسائل الكاتبة ولم يحاول فحصها ونقدها خدمة لتاريخنا القومي الجديد الذي نسبته الكاتبة الى جهودها . دع عنك ما كتبه المحامي سلمان الشيخ داود عنها في معرض النقدفانه لم يأتها الا عن طريقة العاطفة متأثراً بالمعاملة الخشنة التي لاقاها منها أيام الثورة وكان بوسعه ان يأتيها من نواح كثيرة ويدحض مدعياتها بالحجج والبراهين.

ولكن قد يخفف شيئاً من أسفنا أن البريطاني الحر لم يفته ما فات العراقي (صاحب الشأن) فهذا اللورد كوريل يتولى تفنيد زعم واحد للكاتبة

لأنه يجد هذا الزعم متعارضاً والحقيقة الناصعة التي أقرها العلم .

يقول اللورد في مقال أنشأه في مجلة « الستار » ان المس ل صرحت في احدى رسائلها بأنها كانت تشعر عند مناداتها بتأليف الحكومة العراقية انها « كانت منهمكة بصنع التاريخ » :الفكرة التي كثيراً ما توجد في رءوس الأشخاص الذين يقومون بأعمال عظيمة الشأن أو يشتركون في حوادث خطرة . ولكنها تدل — في الواقع — على عدم الالمام بصناعة التاريخ .

ثم يقول اذا كان « التاريخ » قبل الآن دروساً جافة لا تحتوي الا على الحوادث العارية وسلسلة أرقام تبين الارقام والسنين التي صادفت فيها فهو اليوم غيره اذ ذاك . والتاريخ لا يحتاج الآن الى « التواريخ » إلا لتؤلف هيكله العظمي الذي تكسوه الحوادث والعوامل ومؤثراتها بالاوردة والشرايين واللحم والعصب الحساس وتنفخ فيه الحياة .

يرينا اللورد ثلاثة من الرجال الذين فارقوا الحياة في الايام الاخيرة وهم اللورد اوكسفورد (اسكويث) و (السير جون دوروبيك) واللورد هيك ويقول أنهم يعتبرون من عناصر التاريخ ان لم نقل ممن صنعوا التاريخ . فاللورد اوكسفورد ترأس الوزارة البريطانية ابان نشوب الحرب العظمى وخلال ايامها السود. والسير (جون دوروبيك) هاجم الدردنيل واللورد هيك قاد الجنود البريطانية الجرارة الى قنن النصر وذرى المجد . فهؤلاء تبقى أسماؤهم منقوشة ، ولاريب ، في هيكل الذكرى العالمية كما نقشت أسماء الماضين وسوف تذكر أسماؤهم كلما ذكر الصراع الامي الهائل ولكن هل كان هؤلاء شاعرين أثناء تصميماتهم الكبرى بانهم كانوا قائمين بصنع التاريخ ؟!

ومن المعقول أن نحسب أنهم شعروا — عرضياً — بخطورة عملهم وتأثيره في الأجيال المقبلة ولكن لا نستطيع أن نقول أنهم عملوا تحت تأثير

هذا الشعور مطلقاً . والذي يعمل وعينه على المؤرخ يكون عادة أبطأ من الذي يعمل و يفكر بالذي لم يخلق بعد .

ونحن اذ نقول أن هؤلاء قاموا باعمال أثرت فى الأجيال المقبلة نعني أن التاريخ يتألف سواء أ كان شيئاً أم لم يكن اذ هو لا يتأثر بتأثير الماضى ولا يؤثر على المستقبل ولكن سوف يحفظ التاريخ ذكرى هؤلاء الثلاثة لانهم قاموا بالزعامة فقط أما من وجهة « صنع التاريخ » فسوف لا تكون أعمالهم أعظم شأناً من أعمال الملايين من الأنفس المجهولة التي هي المادة الابتدائية لصناعة التاريخ.

قد يصادف المرء بعض الشخصيات (مثل نابليون والاسكندر) تقوم باعمال شاذة في ظروف خاصة فيخيل اليه أنها تصنع التاريخ بما تأتيه من جلائل الامور بعبقريتها الفردية وتغييرها مجرى الاحوال فى العالم . ولكن الواقع هو ليس كذلك بل حتى هذه الشخصيات النادرة لا تعد هي الصانعة للتاريخ لأنها ليست سوى نتاج المحيط تنشأ بتأثير الحوادث والعوامل التي تسوده.

فعلى حد قول اللورد اننا كلنا من عناصر التاريخ وسوف ندرك هذه الحقيقة كلما نزل واحد من كبار ممثلي دور الحرب العظمى من فوق المسرح .

وهكذا يبقى التاريخ ملازماً لنا فى جميع الادوار يسجل نتائج الحوادث العالمية لا قصصها أو بالأحرى يدون حياة البشر اليومية وما يحيط بها من الاحوال وما يسيطر عليها من العادات والافكار . ونحن وان كنا نستطيع اليوم أن نحكم فيما سيكون له شأناً عظيماً من الحوادث غير اننا لا نستطيع أن نحكم حكماً نزيهاً غير متأثرين بالعاطفة شأن الأجيال المقبلة التي كثيراً ما تحكم بعكس ما نحكم نحن : تكذب ما نصدق وتصدق ما نكذب .

فكم كان جديراً بالمسيل الا تغمط حقوق شهداء تاريخنا وتزعم هذا الزعم الباطل وغاياتها أبعد ما تكون عن غاياتنا وذراعها أنحف من أن يقوى على صنع التاريخ الذي نرتضيه لأنفسنا . ؟

كلمة نقد :

شعر الشيخ مهدى البصير

فى (ديوان المعذرات)

— تتمة المقال المنشور في العدد الماضي —

ثم كيف مزجت العناصر والشعوب بالشعب العربي ؟

ان المؤرخين لعاجزون عن ان يثبتوا لنا ان العناصر التي اظلتها راية الفتح العربي امتزجت بالشعب العربي الامتزاج الصحيح ، اول الامر .

وهذه الشعوب كثيرة . نذكر منها الشعب الهندي ، والاسرائيلي والايراني ، والكردي ، والمصري . ونذكر الترك والبربر ، واهل السودان ومن اليهم . وليس هذا محل احصائها .

فلننظر ، أكان الشعب العربي ، وبتعبير آخر أكانت الطبقة (من الشعب العربي) الحاكمة السائدة ، عقيب الفتح ، تمتزج بالعناصر والشعوب المغلوبة ؟

ان التاريخ يقول لنا : « كلا » : وأنها لتلك استمرت فى الحكم مئات السنين فلما ان تهاونت في امرها وامتزجت اذ ضعفت ، ضاعت وابتلعتها الشعوب تلك فزالت الدولة . وعادت ايران ايرانية ليس فيها من آثار العرب وعاداتهم وتقاليدهم واخلاقهم شيء سوى هذه العقائد الدينية التي طغت عليها وثنية الفرس القديمة ، فكان الى جانب عيد الاضحى وعيد الفطر ، عيد النوروز : والى جانب التوحيد الاسلامى عقيدة الخير والشر والتفريق بين فاعليهما . وأساس هذه العقيدة : « النور والظلمة » قاعدة الدين القديم .